الصراع

في العالم العربي

يقولون : إنّ العالم العربي قد جنى عليه موقعه الجغرافي شرّ جناية . فلو لم تكن بقاعه مفترق طرق ، لما وطئته قدم أجنبية،وعاش بمنجاة من الحرب والفتح . لكن هذه البقعة من المعمور — العالم العربي — لم تكن ميداناً للصراع العسكري فقط ، بل كانت ولما تزل ميداناً تتصارع فيه الحضارات . والقوى العسكرية التي تتصادم وتتطاحن قد تدول وتتوارى ، لكن أثر الحضارات يترسب في أعماق النفوس وتتوارثه الأجيال ولن يتمحى . ويستطيع الجيل الجديد الواعي المثقف في العالم العربي أن يعاجد غيره من شعوب الأرض قاطبةً ، لأن بلدانه كانت بمثابةمسراج صبت فيه الحضارات القديمة ، التي رأت النور على شاطىء المتوسط ، زيوت اختباراتها وتجاربها ، وثمرة تفكيرها ، وحتى خيالها وآلامها . ولئن اشتهر الشرق بالجمود ، والمحافظة على قدسية الأثر الذي خلفته الأجيال الغابرة ، فالعالم العربي ، وهو جزء من هذا الشرق ، يتميز بالقلق والتلوّن وقابلية التكيف والقدرة على التمثل . ولئن احتدم الصراع بين فئاته ، وتباينت آراؤها . واختلفت مذاهبها الفكرية ، فذلك دليل على الحيوية ، وغنى التراث المتراكم — من قديم وحديث — والإرادة المتحفزة المتوثبة التي تبغي الأحاطة بكل شيء . ولا بدّ في السياق الطويل من أن يعقب هذا الصراع سلامٌ تنصرف فيه النفوس للإستمتاع بثمرة الحضارات.

إن الحضارة الغربية الراهنة ليست إلاّ درجة في السلم المؤدي إلى الحضارة الانسانية الشاملة . ويستحيل على أي كان أن ينسبها لشعب من الشعوب ، أو أمة من الأمم . ذلك لأن هذه الحضارة قد نمت وعمقت وتفرعت حتى تعذرت علينا الاحاطة بها وفهمها وتمثلها ، فهي قد امتصت مادية جميع الحضارات التي غبرت ونشأت عن مساهمة أمم شتى ، وغمرت أمواجها بدون نزاع مشارق الأرض ومغاربها . وتأتى الحضارة العصرية من الظروف الملائمة

لسعة الانتشار ، ما لم يتأتَّ لحضارة سلفت . ولا يعود الفضل في انتشارها إلى سرعة المواصلات فقط ، وأساليب الإذاعة الحديثة التي انبثقت عنها ، كالمطبوعات على أنواعها والسينما والراديو ، بل إلى الطابع البشري الذي اتسمت به . أما الحضارات القديمة فيمكننا إذا ما استعرضناها أن نردها الى الشعوب التي تمخضت بها ، ونتبين طابع الأمة التي ربتها ، ولم تكن تلك الحضارات الشهيرة ، سواء منها التي ظهرت في سوريا ، أو في مصر ، أو في العراق ، خاصة بهاتيك الامم فقط ، بل كانت ثمارها وقفاً على فئة خاصة من الأمة ، ولذلك بات النصيب الانساني فيها ضئيلاً هزيلاً لا يؤبه له . والى هذا ، لا إلى غيره ، نعزي سبب أقليمية تلك الحضارات ، وركود نشاطها عند تخوم البلاد التي قامت ونشأت فيها ، ولا بدّ من أن يكون تدفع منها شيء الى الأقاليم المتاخمة ، المستعدة لتقبل ألوان تلك الحضارة ، المتشابهة الى حدّ ما في الصفات العرقية المستقرة ، وطبيعة الأقليم ، وتكوين الأرض ، ونظم الحياة الاجتماعية والعقائد الدينية . أما الأصقاع البعيدة فقد استحال عليها أن تتأثر بها وتغمرها أمواجها . وللسبب عينه نرى شعوباً قديمة بلغت درجة عظيمة من الحضارة البشرية ، بينما ظل غيرها يتسكع في ظلام الجهل والغباوة . ومن السخرية المؤلمة أن يتخذ البعض هذا السبق سبباً للتمجد والمباهاة . ولو عقلوا لفقهوا أن الامم كالأفراد لا تولد جميعها في عام واحد أو في قرن واحد ، بل لا بدّ لها من أن تمر في أطوار الحياة الرئيسية الثلاثة من ولادة فشباب فهرم . وأن هناك أمماً قد شبّت باكراً وأخرى قد شبت متأخرة . وإننا لا نستطيع أن نتبين العلل التي أدّت الى النهوض الباكر ، أو التي أخرت الظهور وعاقت النمو . وأكثر الحضارات القديمة لم تبرح موطنها الأصلي وتنتشر إلاّ عندما كانت تكفلها قوة عسكرية يكتب لها الفوز في الحرب . فالاسكندر حمل إلى سوريا ومصر الحضارة الأغريقية ، وطلع العرب على العالم من جزيرتهم بدين جديد تدعمه قوة عسكرية لا يستهان بها .

أما الحضارة الغربية الحديثة فانها استطاعت أن تنتشر في الأمصار القريبة والبعيدة ، وتغزو العقول والقلوب ، وتطور المجتمعات التي تتسرب إليها ، معتمدة في ذلك على أساليب الاذاعة التي ابتكرتها الصناعة الحديثة من صحافة ومؤلفات ومواصلات لاسلكية وسينما .

ومن أبرز خصائص المدنية أنها عملت على نشر ألوان المعيشة ومظاهر الحياة وتنوّع الأزياء واختلاف الألسنة وفنون الأعمال والعمران. وعمدت الى الماضي فمحت أهليه سحنتهم وأساليب حياتهم وطرق معيشتهم وشكل منازلهم وغربت وشرقت بهم.

ولقد قدّر للشرق العربي أن يتصل بالغرب منذ أوائل القرن التاسع عشر. لكن هذا الإتصال كان قصير الاجل، محدود الأثر، وسبب ذلك يعود الى البيئة المتأخرة التي كانت تحيا فيها أمم العالم العربي إبان حملة نابوليون الى الشرق، والى الذهنية التي كانت تسيّر تلك الأمم في مضمار الحياة، والدين التي كانت تنظر بها الى الحياة والكون، والقيم التي كانت تعتبرها وتجلها. ولم يثمر هذا الإتصال في إبانه في مصر، ولم يكن له صدى بعيداً في أرجاء العالم العربي، لندرة الرؤوس المفكرة التي تدرك ما تريد، وتعرف ما لا تريد، وعدم وجود زعماء حقيقيين يرون الزعامة وسيلة لإجراء الاصلاح الشامل لا واسطة للاستبداد والتعسف وابتزاز الأموال. فهؤلاء لا غيرهم، يمكنهم أن يسوقوا الشعب سوقاً إلى مناهل العلم وحياض المعرفة ويطلقوا في الوطن تيارات جديدة. وهل هذا القول أكثر ما ينطبق على محمد علي، ذلك الرجل الواعي المصلح.

ومن شأن الحضارات عندما تتلاقى أنها تتفاعل وتتناحر وتتصارع وتختلف حدة الصراع باختلاف الأمم ومقدار تفتحها وقابليتها للتكيف والاقتباس، أو انكماشها وانطوائها على ذاتها، والشبه بين الحضارات. ومما يزيد في الصراع أن الأكثرية الساحقة في كل أمة تعيش بمعزل عن نور العصر الذي تحيا فيه، محافظة على نظرات جامدة إلى الكون والحياة لا تتخلى عنها، ولا تفقه معنى التطور وضرورته بغية الاستمرار في الوجود وكرامة الوجود. وإن هذا الصراع ما زال ناشباً على أشده في العالم العربي منذ مطلع هذا القرن. ومرد هذا الصراع إلى صفة العالمية والشمول التي تتصف بها الحضارة الغربية العصرية. فمتنا لا مفر لنا من الانصياع للواقع والاقبال على خير ما في هذه الحضارة من خير يرتجى. إذ يستحيل علينا أن نضع أنفسنا في قمقم، ونغمض العين، ونصم الآذان، كل ذلك كي نتجاهل عمداً التيارات الحضارية التي انطلقت فعمت الارض بأسرها. ولا بدّ لنا من أن نمضي جادين في الاقتباس عن الغرب الاوربي والغرب الاميركي؛ ومن لغط القول أن الاقتباس يفقدنا

مميزاتنا الذاتيــة وخصائصنــا القومية ويذيبنا في بوتقة الحضــارة الغربية . إذ ما من قوة ، مطلقاً ، تستطيع أن تجعل من الانسان كائناً جديداً غريباً عن خصائصه الأصلية العريقة ، الذاتية منهــا والعبر ديَّة ، لأن المرء لا يقوى أن ينجو من مؤثرات المجتمع الذي هو في أحضانه ، والبيئة التي يقطنها .

ومن مميزات الشعوب المتأخرة ، المتخلفة في مضمار الحضارة ، أن لا تكترث بالحضارة ولا تعيرها اهتماماً ، ولا تعلّـق آمالاً كباراً على الغد ، بل تسمر أنظارها في الماضي ، مؤمنة بصلاحه وفساد الحــاضر . وتعتقد أن ما من فكر حديث إلاَّ راود أذهان الأجداد ، وما من مخترع في العصر الحاضر إلاَّ علقت به جذور تمتد الى المــاضي السحيق الذي نجهله . فما لهجت الألسن مرة بالغرب وحضــارته ولخصائص الانسانية التي تتميز بها ، والفوائد الجمة التي نجمت عنها واستفادت البشرية منها في شؤون عيشها وحياتها ، إلاَّ سمعنا من يتصدى قائلاً : إن الغرب مدين للشرق ، ولولا الشرق لمــا كان الغرب ، وتراه في العصر الحــاضر يسدد الديون التي اقترضها عند ما كان لا يزال في أول الشوط . وان هذه المدنية الغربيــة ، التي لا تنسب الى شعب معين أو الى سلالة معينة ، لم تنبت في أوربا وأميركا على نحو ما تنبت الكمأة والفطر ، بل ان بذورها جيء بهــا من الشرق ، سواء كانت روحانيــة أو مادية . ولئن يكن الشرق مهداً لحضــارات قديمة متعددة ، فليس من المقرر الثابت أن الحضــارة الغربية ابنة صحيحة لهاتيك الحضارات أو امتداد لها . فكما أننا نجهل جهــلاً تاماً جميع الطبقات الارضية التي تجتازها قطرة الماء حتى تخرج من النبع ، فكذلك يستحيل علينا أن نعين كافة العوامل ، التي ساهمت وساعدت على نمو الحضارة الغربية وازدهارها .

وما هي ذي الحضارة الاسلامية – العربية بين يدينا ، فهل نقدر أن نعين كمّـاً مبلغ ما أخذت وما أعطت ؟ وهل حدث لأمة أن نهضت دون أن تتوكأ على تراث غيرها من الامم ، وتستغله أعظم استغلال ، وتتخذه أساساً تشيد عليه صرح حضارتها ؟ ومن الغريب أن يعمد الغرب إلى جميع الحضارات القــديمة ، ويقتبسها ويتبنها ويتمثلها وينشرها ، خالعاً عنهــا رداءها الأصلي ، بما كان فيها من روحه وتقاليده وعاداته ، بينما أظهر الشرق عجزه عن الاستفادة مما يوجد بين يديه . ولعلَّ مرد ذلك إلى طبيعة الشعوب الشرقية القديمة التي اعتادت أن تحيط

العلم بهالة من الاجلال والقداسة والاعتبار، وطبيعة الغربيين الذين يعتبرون العلم مجرد وسيلة وأنه وجد لخدمة الانسان واسعاده ولذته. إنهم أزلوموس برده الماجي الذي منه فيه الشرقيون
ولغيري أن يصوب سهام النقد العنيف إلى الغرب لامعانه في المادية. هذه المادية التي تتجلى في الحروب والنزعات الاستعمارية، والكدح في سبيل المال، والايمان المطلق بالعلم وقدرته على تفهم أسرار الحياة والكون. مع العلم أن ينابيع الحضارة الغربية ثرّة صافية عذبة. ويستحيل على المياه أن تظل صالحة نقية من منبعها حتى مصبها. فإنها لا تقوى على دفع الأجسام الغريبة التي تلق فيها وتعكر صفاءها وتفسدها وتجعلها غير صالحة. أما أنا فإني أومن إيماناً لا يعتوره شك في ان العالم العربي ما اتصل مرة بالغرب إلا ونشأ عن هذا الاتصال والاحتكاك والاقتباس عصر ذهبي ونهضة جبارة في جميع نواحي الحياة وأبواب المعارف. وشاهدي على ذلك المساهمة الحقيقية من قبل سوريا ومصر في الثقافتين المطبعتين الخالدتين الاغريقية والرومانية. فقد عرفت كل من سوريا ومصر تينك الثقافتين وأثرت فيهما وتأثرت بهما، وأخذت منهما وأعطتهما. ولا يزال العصر العباسي قريب العهد منا، وان كان الاتصال تم يومئذ عن طريق غير مباشرة. فلا يجوز أن نقول عن العصر العباسي إنه امتداد طبيعي للعصر الاموي. وليس مرد ذلك الى النظم السياسية وألوان الترف التي سادت المجتمع يومئذ، بل الى غزارة المعارف ولونها وتوعها التي صبت في المجتمع العباسي. لقد كان العصر الاموي يتسم بالعنصرية الشديدة المغالية. ولم تكن العنصرية في يوم من الايام إلا ضيقة منكمشة، تؤثر العزلة، بدافع من الانفة، على الاتصال وما ينشأ عنه من أخذ وعطاء.
لقد كان للعصر العباسي نوافذ تطل على الجهات الاربع، فيتنشق النسمات التي تهب من الفرس والهند وبلاد الاغريق. ولعل أقوى النسمات وأكثرها شذى تلك التي هبت عليه من الديار الغربية، تلك التي تفاعلت مع الحضارة الاغريقية. ولهذا جاء نتاجه غزيراً متنوعاً ملوناً. ويقيني أن الشعوب الاسلامية والعربية لو لم تستنكف بدافع ديني وعنصري في آن واحد عن اقتباس الفنة اليونانية، لكان لتراثنا القديم شأن يختلف كل الاختلاف عن شأنه الراهن. وانهم أخفأوا وأظهروا كلاً منبثقاً عن العقيدة الدينية عندما اقتبسوا بالترجمات — ويغلب عليها السقم والايجاز والهوى — التي كانت تقوم بها الاقليات الدينية التي

ظلت تعيش في البيئة الاسلامية . ومن المؤكد والمعقول أن أولئك المصريين لم يسبروا غور الثقافة الاغريقيــة ، وأن تلك الترجمات لم تتناول إلا الامور التي كانت تشتد إليها رغبة الجهرة من علماء الـكلام ، للذب عن عقيدتهم في بيئة صاخبــة زاخرة بالمذاهب والعقائد والآراء التي اعتمدت البحث والجدل .

ولقــد تنوّعت الأسباب التي حدت بأبناء العالم العربي كي يقفوا من الحضارة الغربية موقف الحذر المتردد المتجهجف . فطفق الـكثيرون يندّدون بهذه الحضارة ، ويلصقون بها التهمة تلو التهمة ، ويعتبرونها مفسـدة للأخلاق ، مدأمة للتقاليد المتوارثة ، نزّاعة إلى الالحاد والاباحيــة ، عاملة على الانحلال الإجتماعي . ويجمل بنا ، حسب رأيهم ، أن نبني حول أفكارنا أسواراً نتقي بها الشرور التي تحاول أن تتدفق علينا من الغرب . ففي تراثنا القديم عنها غنى ، وفيه زاد وكفاية . وكما صلح هذا التراث في الماضي ، فلِمَ لا يعود يصلح في العصر الحاضر ؟

وسبب هــذه الحالة التي يشنها الجامدون الذين آلوا على أنفسهم أن لا يتقدموا قيد شعرة منذ نصف قرن في مضمار الفـكر والرأي ، والذين لا يرون ضرورة في التطور ، ولا يفقهون ناموسه الفاعل فينا رضاً عنا ، هي الفروق العقيدية الـكائنة بين أبنائه والغربيين أولاً ، وإلى الظروف والملابسات التي أدت إلى الاتصال بالغرب .

إن تعرفنا إلى الحضارة الغربية لم يحصل بواسطة التطور البطيء في الملاقات والاحتكاك والتفاعل ، بل إن هــذه الحضارة بكامل جهازها وتقادم عهدها ، وعظيم أسرارها ؟ وغنى تراثها ، قد جاءتنا في إثر الحملات العسكرية الاستعمارية التي كانت تستهدف الشرق العربي . وهــذه المفاجأة أحدثت في أممه بلبلة وتشويشاً ، لأن هذه الامم لم تكن على استعداد تام لتحتضن وتتمثل حضارة ضاعت فيها أمم شتى طيلة عصور . ولم يدعنا الغربيون وشأننا ، ولم يعترفوا أن لنــا خياراً في الأمر ، بل أطلقوا في مجتمعاتنا تيارات حضاراتهم وأذاعوا مبادىء مدنياتهم ، ونسفوا ما لدينا من نظم وتقاليد ، وأحلّــوا مكانها نظماً حديثة لم نستنبط حرفاً واحداً منها ، ولم تتصل تماماً بالبيئة التي تقطنها ، وبالروحية التي نعتنقها . ومن مميزات الشعوب المغلوبة على أمرها ، أن تنذاب أدمغة طيّعة في يد الغالب ، لينة كالعجينة . يتشيء

منها الصورة التي يشاء . وهـذا السلوك لا ينافي حقيقة الجماعات البشرية لدى اختلاطها بعد حروب . فالغالب يسمى ليوطد ويتمتع بالسيادة التي ينتزع بها البناء أو الغزو ، أو التقدم أو الانحطاط ، تبعاً للرسالة التي ينوي أن يؤديها ، وتبعاً لاخلاص الأفراد الذين توكل إليهم تأدية هـذه الرسالة ، ونصيبهم من المثل العليا والانسانيـة . ومما أثار حفيظة المحافظين هو انتشار الحضارة في أرجاء العالم العربي وتغلغلها في جميع نواحي حياتنا . فظهرت آثارها بارزة في العمران ، وأساليب المعيشة ، والأزياء والمشارب ، ومرافق الحياة ، وفنون التفكير والاجتماع والاقتصاد والسياسة . وما معركة الأدب الجديد والأدب القديم إلا نتيجة متوقعة طبيعية نشأت عن تصادم الثقافتين ، وإن اندحار تراثنا أمام الحضارة الغربية ولّد في القلوب شكوكاً وسوء ظن في صلاح هـذا التراث لمقتضيات الحياة العظيمة . وسوف لا أعني فيما يأتي إلاّ ببحث التطور الذي انتاب حياتنا الفكرية ، والتبديل الذي طرأ على مفاهيمنا في تقدير القيم والمثل ، وأحدث تغييراً كبيراً في نظرتنا الى الحياة والكون .

ما هي الأسباب التي أدّت إلى انقلاب في مفاهيمنا للقيم والمثل ، ونظرتنا للكون والحياة ؟ إن السبب الوحيد الذي أحدث هذا الإنقلاب هو الثقافة الغربية . فقد انصبت علينا هذه الثقافة في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ولما تزل تتدفق . فأتيح لنا أن نتصل بهذه الثقافة مباشرةً ، ونـرِدُها من مناهلها ، ونتعرّف إلى أسرار تلك الحضارة ، والينابيع التي انبثقت منها ، وفقهنا علة النهضات في الغرب على اختلافها ، والانقلابات التي حدثت في سائر ميادين الحياة . لقد علمنا أن الغربي بدأ أولاً يتحرر من القوى الخارجية التي كانت تهيمن على شؤون حياته ، كالكنيسة ، والدولة الأوتوقراطية ، ومن النظريات الاعتباطية التي يكون الجهل مداها والخوف لحمتها . والفضل في هذه اليقظة التي راودت أجفانه ، يعود إلى احياء الثقافة الاغريقية وانتباهها وتمثلها . وتمكنا من الاطلاع على مراعي المبادىء الديموقراطية ونموها في أوروبا الغربية خلال القرنين السابع عشر ، والثامن عشر ، التي أحدثت الثورة الانجليزية عام ١٦٦٨ ، وتمت الغلبة فيها للنظم الدستورية على الإمتيازات الملكية ، وتكشفت لنا الثورة الاميركانية التي نشبت عام ١٧٧٦ . ولم تكن تستهدف الاستقلال السياسي فقط ، بل كانت تتوخى اقرار المساواة في الحقوق والواجبات . وفي عام ١٧٨٩ أضرمت

نيران الثورة الفرنسية ، ولعلها أعظم الاحداث طرًّا ، التي تمخضت عن حقوق الانسان والأقانيم الثلاثة « المساواة والحرية والاخاء » . وما من انقلاب سياسي أو اجتماعي أو علمي حدث عفواً ، بل مهد له أشخاص وقرنا بأسمائهم . فلا نذكر الثورات السياسية حتى يتبادر إلى الذهن إسم كرومويل وواشنطن وفولتير وروسو ... والأحداث الاجتماعية والاقتصادية مدينة لسان سيمون ، وبرودون ، وماركس ... والثورة على الكنيسة تذكرنا بلوثيروس وكالفن ... والانقلاب في النظرية العلمية تمّ بفضل جاليكو وكوبرنكوس ونيوتن وداروين وباستور ...

ظللنا قرونا تلو قرون ، ونحن نردد مع يسوع « لتكن مشيئتك » ونؤمن مع محمد أن « لا غالب إلاّ الله » . إن هذا الاسراف في الإيمان بالقضاء والقدر ، انتزع من نفوسنا مبدأ المسؤولية وحرية المصير ، وقادنا إلى الاعتقاد إن الانسان لاتترتب عليه مسئولية ماضي هذه الدنيا . بل انه مجرد أداة تتلاعب بها يد جبارة تدعى القدر ، هذا الحصن الحصين من العقيدة التي تمخضت عنها الكتب المنزلة ، وقدست أجيالاً ، انهارت انهياراً يكاد يكون تامًّا لدى أول اصطدام بالثقافة الغربية . وأخذ العالم العربي يعيد النظر في كل ما توارثه مجتمعه من أنظمة زمنية وعقائد روحانية . لقد آمن أن الله علة كل شيء في الكون . وبما أن الله علة كل أمر ، فباتت جميع قضايا الحياة موسومة بمشيئته ، ولا حول للانسان في تبديلها أو تعديلها . أما اليوم فقد بدأ يعتقد أن الجمعية البشرية ، لا الله ، وما صلته من نظم جائرة ، وأورثت من تقاليد وعادات ومساوىء ومفاسد ، مسؤولة عن نتائج هذا الميراث . فليس الفقر الذي يجعل الحياة جحيماً لا يطاق آية ربانية ، بل هو خلل أخلاقي واجتماعي واقتصادي وسياسي . وليست الطبقات نظاماً أزليًّا ، ثابتاً كالطود ، مقدساً كالناموس ، وليست الأوثان الاجتماعية أرباباً . فالطبقات غير مستقرة ، وهي كالموج لا تنفك تعلو وتهبط تبعاً للعوامل والأحداث والانقلابات التي تنتاب الأمم والشعوب . فنشأ من هذا الاعتقاد ان من حق الانسان أن لا يقف مكتوف اليدين أزاء المساوىء العالقة بالمجتمع البشري . فكما أنه استطاع أن يحرر الطب من الكهانة ، وينزع غشاء الخرافة عن الأمراض ، كذلك عليه أن يفصل ويميز بين المشيئة الربانية والمساوىء الاجتماعية التي سببها الانسان . إن هذا المبدأ الذي تسرّب الى

العالم العربي وغزا عقول أبنائه ، وبات عقيدة راسخة ، هو أعظم حادث في تاريخ هذه البلدان منذ أن أنقذت من عبادة الأصنام ، ودخلت الله وحده بالإيمان والعبادة . ولهذا لا نعدم من يقول إن الغرب زعزع معتقدنا الديني وزرع الكفر في قلوب شبابنا ، ونسق التقاليد الجميلة التي سار عليها آباؤنا وأجدادنا . والحقيقة أن هذه الحرية الفكرية التي يمتاز بها الجيل الناهض ليست ثمرة الإلحاد والكفر بالله والمثل العليا ، بل هي وليدة الثقافة الحرة الشاملة العميقة التي تنمي في الفرد شخصيته الانسانية ، وتجعله يتعالى ويتحرر من العقلية الرجعية المسيطرة على مجتمعه ، ويخضع الكثير من حوادث الكون ومظاهر الحياة إلى العقل والمنطق .

خضعنا طويلاً وبكل طيبة خاطر للنظام الأوتوقراطي الأجنبي الذي اعتمد الأساليب الأوليغاركية كي تضمن له البقاء والقوة . ولم نثر يوماً لقلب نظام الحكم وفصله ونزيل مساوئه ومفاسده ، بل ثرنا مراراً عديدة على الأشخاص في سبيل أشخاص لا ينشدون سوى المنصب والجاه . وظللنا نؤمن ، إلى أن اتصلنا بالغرب ، ان السلطة تهبط من السماء ولا ترقى من الأرض . ولهذا لما تبرح ألسنتنا تلوك تعابير الذل والهوان والجهل التي خلقها العهد العثماني : الطريق للسلطان والماء للسلطان والأرض للسلطان . لهذا الضرب من الحكم خضع الشرق العربي أجيالاً ، لا جهلاً منه بمبدأ الدولة ، بل لأن قروناً طويلة من الجهل والظلم والفوضى ، ثلاثة أقاليم تذكر ما ذكرت السلطنة العثمانية تلك الدولة « العليمة » ، قد أرهقته وأماتت مواهبه وخنقت نشاطه .

وكما استطاعت الثقافة الغربية أن تنمي الشخصية الانسانية في الفرد ، وتنبهه وترشده الى الحقوق التي خصته بها الحياة وتدفعه دفعاً اليها ، فانها قد أيقظت في النفوس الروح القومية ونشرت النزعة الوطنية . فهل أتيح لشعوب العالم العربي ، فيما خلا من العصور ، أن تشعر هذا الشعور وتفكر هذا التفكير ؟ . لقد خاض ألوف من السوريين غمار الحرب العالمية الأولى الى جانب الترك العثمانيين ، وهم يعتقدون انهم لا يحاربون إلا في سبيل قضية مشتركة وهدف واحد : مصلحة السلطنة العثمانية وتثبيت دعائمها . ولم تمض إلا سنوات قلائل على انتهاء الحرب حتى اجتاحت سوريا الشمالية ثورة ترمي الى طرد الأجنبي واجلائه

عن البلاد ، ولئن كان نصيب تلك الثورة الفشل من الناحية العسكرية الصرفة ، لكنها عملت على إحياء الشعور القومي .

إننا بلغنا المرحلة التي بلغها الشعب الفرنسي قبيل عام ١٧٨٩ . ويساورنا الآن ما كان يساوره يومئذٍ من رغبة في الاصلاح يشمل شؤون الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، ونقمة على النظام الاوليغاركي المستفحل في أقطارنا على أراضين السادة الذين جعلوها حقلاً متوارثاً خاصاً بهم محتكراً في أسرهم . إن الطبقة الشعبية في العالم العربي بدأت تستيقظ من سبات طال أمده وتتعرّف الى حقوقها في الحياة . ويتساءل أولئك الذين يرومون انهاض الشعب ويرغبون في الاصلاح الاجتماعي كما تساءل « سييّس » : « ما هو الشعب ؟ — إنه كل شيء — وأي شأن كان له في النظام السياسي ؟ — لا شيء ؟ — ماذا يبتغي ؟ — أن يصبح شيئاً ذا قيمة » هذه الفكرة التي نشرت شراعها في العالم العربي هي بادرة التحرر من جميع الكوابيس وألوان الطغيان والظلم التي اتصفت بها القرون المتصرمة .

وربّ قائل يقول : وهل النظم الاجتماعية الحديثة التي انبثقت عن الحزبية خير من الأوتوقراطية التي ودعناها منذ أمد قصير ؟ لقد كان الملك يعد نفسه مسؤولاً أمام الله عن أعماله ، وليس للشعب أن يتطاول لمحاسبته ، أما الزعيم الحديث الذي تمخض عنه الحزب الذي يمثل إرادة الجماعة ، فمن ذا الذي تحدثه نفسه في محاسبته أو خلعه ؟

مما لا مشاحة فيه ان الأحزاب السياسية ظاهرة جديدة في مجتمعنا الحديث . وهي من جملة الأساليب التي تسربت إلينا من الغرب . فهي تقوم على تكتلات من سائر طبقات الأمة وتستند على مبادىء تستهدف خير المجموع وترمي الى اصلاح حياة الأمة من جميع نواحيها وهي ما أنشئت إلاّ لتقضي على تلك التكتلات التي يزخر بها العالم العربي ، والتي تتغذى وتستمرئ من اعتبارات طبقية اقطاعية بالية ، ونظرات طائفية متحدرة من الحذر والذعر والمقت والتكتلات الطائفية هي بمثابة دائرة مغلقة لا يتفاعل فيها تفاعلاً مطلقاً حرّاً إلاّ أفراد تلك الطائفة . وسوف تكون هذه الظاهرة حادثة فذّة في تاريخنا الحديث وسبباً من أعظم الأسباب التي تساعد على تطور الحياة في أرجاء العالم العربي . تقد يتم ذلك إذا أطلقنا في أقطارنا تيارات المبادىء الصالحة السامية التي تتيح للإنسانية الكامنة في كل بشري أن

تتفتح وتتألف وتنمو وفق ميولها ونزعاتها ، لا التي تحاربها النزعات الانسانية الصميمة كحرية العبادة ، وحرية العمل ، وحرية الوجود ، وتضحي بهذه المثل ، التي لا يسمو الانسان إلا بها ، لقاء هدف اقتصادي أو سياسي . والحرب بمعناها البعيد العميق مناوأة لاحكام القدر . هو حلم ابرق عليه من لم يقدر له أن يولد في عهد النعيم ويرث الامجاد والامتيازات . وإننا لا نزال ننظر بامتعاض الى التكتلات الحزبية الحديثة ، ذلك لانها أكثر ما تتألف ممن ينشدون العدل الاجتماعي وإزالة المساوىء والغبن ، ولا نزال متأثرين بإرث الاجيال الغابرة التي حفلت بالتكتلات التي لم تستهدف سوى اغتيال القائم على شؤون الحكم واستلام المقاليد من يده وممارسة الاعمال التي يمارسها دون إحداث أي تغيير في الجوهر .

وليست الغرابة أن تتأثر المرأة بموجة التطور ، بل الغرابة أن تبقى بمنجاة من هذا التأثر والانفعال والاحتكاك . فلقد أتاح لها الاطلاع على الحركات النسائية في العالم ، ولكنها العلم الذي انتشر على درجاته ، ونشوء الصناعة الحديثة وازدهار التجارة وتنوعها ، أن تعمل وتكسب وتستقل اقتصاديًا . كل هذه العوامل حدت بالمرأة أن تطالب بالإنعتاق من ربقة التقاليد لتعيش في مساواة تامة مع الرجل . ولكي تبلغ هذه الاهداف لم تجد بدًّا من التكتل والتعاون وإنشاء المنظمات النسائية بغية نقل حقوق طبيعية قد سلبها إياها المجتمع البشري ، وبلوغ إمتيازات خص بها الرجل من دونها وما فتىء يتمتع بها منذ أزمنة طويلة متغلغلة في القدم . فهل تستطيع المرأة أن تتغلب على سلطان التقاليد التي اعتبرت الرجل متفوقًا عليها في كل شيء ؟ وهل تستطيع أن تتملص من وطأة النصوص الدينية التي حرمتها المساواة الحقوقية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، التي قضت عليها باعتزال المجتمعات والتحجب ؟ إنّ العامل الاجتماعي المتوارث والوازع الديني ، قد ولدا في قلب المرأة التي تعيش في بيئتنا شعوراً دفيناً إنها دون الرجل ، وثبطا همتها كي لا تطمح الى ما يطمح ، وإنها لن تبلغ من الكمال ما يبلغ لانها لم تؤت من المواهب ما أوتي . فوقر في ذهنها أنها خلقت لتسير في ركابه ، لا لتكون له ندًّا ، وأن تقوم على خدمته لا ليتعاونا في مضمار الحياة . فقنعت بهذا الحظ ولم تخطر الثورة يومًا ببالها . وإن التاريخ المالي وغير المالي لم يسجل

ثورة للنساء على الاطلاق . وليست العبرة في الحوادث الفردية المتقطعة الفورية التي تحمل طابع التمرد والغضب أكثر مما تتسم بميسم الثورة على أوضاع لا ترضي وتشدان أهداف تخلق الحياة خلقاً جديداً .

لا يزال الكثيرون يعتقدون أن المرأة الصالحة الفاضلة هي التي تلوذ ببيتها ولا تبرحه مطلقاً ، وتتحجب عن الرجل كي لا تلم عفتها وتقاوتها ، وتجهل كل شيء . وقديماً وجد على قبر امرأة رومانية : « غزلت الصوف ولزمت بيتها » . لئن كان هذا الضرب من الحياة هدف المجتمعات القديمة أو المتأخرة ، فلم تعد هذه المبادىء السلوكية تصلح أن تكون أساساً نقيم عليه صرح حياتنا العائلية . فالمرأة المثلى في الوقت الحاضر ليست تلك التي تطغى فيها عناصر الأنوثة على عناصر المرأة ، وليس الفخر أن تجهل ما جلّ ودقّ من شؤون الحياة وأسرار الكون ، وليست تلك التي تعش عيشاً على ذويها وزوجها ، بل تلك التي لا تفيدها الأنوثة إلا لتؤكد خصائصها وتبقيها متميزة عن الرجل في كثير من الامور ، والتي تسعى لكسب المعرفة وتحصيل العلوم وتذوق الفنون على اختلاف أنواعها . وسوف تشتد الحاجة الى المرأة بمقدار ما تتطور امكانياتنا الاقتصادية وأحوالنا السياسية والاجتماعية . ثم ان الآلة قد عدت على المرأة وزاحمتها وبزتها فيما اختصت بها من الاعمال من كساء ومأكل ومشرب . فأصبح لا مفر للمرأة من أن تخرج الى الحياة لتقضي على السأم الذي ينتابها ، وتتعرّف العالم الذي عرفته في الكتب .

هذا هو الصراع العنيف الذي شرعت به المرأة في العالم العربي منذ مطلع هذا القرن . ويقيني ان المصلحين في بلادنا سوف يتساءلون عما اذا كانت المحافظة على وضع متوارث وعقائد متوارثة ، قضت بالتفاوت الاجتماعي بين الجنسين ، لا تؤخر نشوء المجتمع الامثل . فهل يكتب النصر للرجل تعضده تقاليد وشرائع مقدسة وتفوّق جثماني ، أم يكتب الفوز للمرأة ولا سلاح لديها سوى فتنة خالدة ، وإيمان مطلق بالحق ، وكفاءة مغمورة لو انطلقت من عقالها لقلبت أسس الحياة كلها وغيرت وجه التاريخ ؟ ! !

صافيتا (سوريا) الياس يعقوب